على ذكر رسائل التعليقات للرصافى

دليل علمى يدحض مذهب وحدة الوجود

للأستاذ عبد المنعم خلاف

لخص الأستاذ الفاضل دريني خشبة مقولات احتواها كتاب أصدره الشاعر العراقي معروف الرصافي تدور حول الإيمان بوحدة الوجود وحلول الخالق فى المخلوق

وكنت اهتديت إلى دليل علمى قاطع يدحض هذا المذهب ويلقى ضوءاً جديداً أمام العقل البشرى الموغل فى بحث علاقة الله بالكون حتى لا يتزلق إلى الأخذ به ... اهتديت إليه فى ٥ ـ ١٢ ـ ١٩٤٠ وسطرته فى سجل خطراتى اليومية . وهممت بنشره فى مناسبات عدة أثناء مقالاتي عن الإيمان بالإنسان ، ولكن أراد الله أن أطرح هذا الدليل فى مطارح البحث والجدل الذى سيثيره حتماً كتاب الرصافى . فهذا هو أنسب الأوقات لانصباب هذا الدليل الجديد على ذلك المذهب القديم الوجمي الذى يرفع رأسه على قلم شاعر يريد أن يستخدم القرآن ورسول الإسلام ستاراً ودريئة ويزج بهما فى الدعوة إلى مذهبه . مع أن القرآن وبيان رسول الإسلام ليس أوضح منهما فى تبيين الحدود بين الله والطبيعة

* * *

وكنت وما أزال داعياً إلى ابتداء التفكير فى الطبيعة وما وراء الطبيعة على ضوء التأمل فيما استطاعت قوة الخلق والمحاكاة والإنشاء المودعة فى الإنسان أن تصنعه وأن تسخره ؛ لأن ما أنشأه الإنسان وما وصل إليه من أسرار الطبيعة جدير أن يغير منطقه التجريدى القديم ونظرته للعلاقة بين الله والطبيعة

ولكن مع الأسف لا تزال ظلال التجريدات والفروض القديمة تسيطر على عقول كثير من الباحثين الشرقيين فى مسائل الوجود ، ولا يزالون خاضعين فى تفكيرهم الدينى والفلسفى لرجال المدرسة القديمة التى لم تتصل بأصول الثقافة العلمية الحديثة التى تحتك أيدى العلماء فيها بيد الله وتأخذ منها أسرار الخلق والتكوين ، ولو أن عقلا كعقل الرصافى ، أو كعقل الزهاوى اصطنع ذلك الأسلوب الذى ندعو إليه ، وهو أسلوب تجديد النظر فى الوجود على أساس أسرار الإنسان الحالية ، إذن ما وجدا ضرورة إلى اعتناق مذهب وحدة الوجود . . . ولكنهما عقلان متأثران بالمباحث الصوفية وفلسفاتها القديمة التى أوغلت فى بحث قد أثبتت الحياة أنه لا طائل وراءه بل وراءه كل الهلاك والبلبلة والضياع والاختلاط

ولقد غزا هذا المذهب عقول بعض الفلاسفة والصوفية الذين آفتهم أنهم طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التى يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشرى المخلوق لإدراك النسب بين كائنات الطبيعة وحدها أولا . فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه ـ كما هو المنتظر ـ ذهبوا إلى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر ، وأنه يحل فيه وليس له

فى ديوان من دواوين التشريفات ، ولكنها هى مسألة القيام بأعمال الرجال وأعمال النساء على الوجه الصالح لكل من الجنسين ، وهذه هى الحقيقة التى ينبغى أن يتلقفها ببغاوات الصيحات الجديدة فى هذا الشرق المسكين . فرب بدعة جديدة هى أعرق فى الغباء وضيق العطن ومحولة الوعى من أعرق جهالات القرون الأولى

فمن شاء من ببغاوات الصيحات الجديدة عندنا أن يقال له إنه « على آخر طراز » فليكن كما شاء على آخر طراز يختاره فى سنة ١٩٤٤ أو بعد ذلك بألف سنة أو ألفين

إنما عليه أن يرد صيحاته الببغاوية فى الأقفاص التى تليق بها ، ولا يتجاوزها إلى حقائق الحياة وقواعد الآراء التى تناط بها مصائر الأجيال

عباس محمود العقاد

وجود منفصل عنه ، وهكذا تجد الوثنية التي حاربتها الأديان والفلسفات السامية سنداً عظيما من هذه الفلسفة التي تعيش في ظلال هذا المذهب

وهكذا تتحول كل الطبيعة إلى أصنام آلهة !

وهكذا تعود الحجارة والبقر والخنفسان والخنازير معبودات إلهية ! ...

* * *

ويدهى أن النظرة الأولى تهدى إلى أن الله غير الطبيعة . وأن هناك انفصالا بين الخالق والمخلوق

ولكن النظرة البديهية هذه كثيراً ما يطمسها التأمل الذى لا يقنع بالظاهر الواضح ، ولا يرضيه الوقوف عند ما يوحيه المنطق العملي ، بل يلذ له أن يلجأ إلى الفروض ويحاكم فكرة الله إليها ... ولا شك أن هذا إيغال مهلك لا طائل وراءه إلا الضياع والبلبلة

وقد ذهبت بي نظراتي في النفس والوجود إلى أن الوقوف على سطح الوجود هو المنطق الذى لا تملك غيره ما دمنا محدودين ضئيلين في أرض ضئيلة الحجم جداً بالنسبة إلى الوجود الأعظم الذى نرى منه بعض سطحه حين نسرح أبصارنا في السماء . . . فكل إيغال وراء ما توحيه البداهة يكون وراءه الشرود والجموح والبلبلة . فالإحساس بانفصال النفس عن الكون وانفصال الله عن الكون تبعاً لذلك هو تلك النظرة البديهية التي لا نملك غيرها إن أردنا أن نسير مع المنطق العملي للحياة . وأن نحل أكثر مشكلات الوجود ، وأن يطرد تقدمنا البشرى وأن تحدد المسئوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ولا تسقط التكليفات ولا تهدر قيم الأشياء

أما اعتناق مذهب (وحدة الوجود) فمعناه الاختلاط والتشويش والفوضى والتباس المقاصد وذهاب الاختيار بين الخير والشر

وبديهى أن الحياة الاجتماعية وصلاحها هى الفاصل في الأمور الجدلية ، أو ينبغي أن تكون كذلك . والحياة الاجتماعية تأبى هذا المذهب كل الإباء ولا تحتمله لحظة . لأنه أعظم أسباب انهيارها ودمارها ! فإن الإنسان سيكون بهذا المذهب إله نفسه لأنه جزء من الخالق . . . وسيكون الآلهة بعدد المخلوقات أو بعدد الناس على أقل تقدير !

وإن الحياة الحالية لم تحتمل شطط الإنسان وجبروته ومتابعة هواه ، وهو يعتقد أنه مخلوق تافه مسئول له خالق سيحاسبه حساباً عسيراً ... فما بالكم به حين يعتقد في نفسه أنه إله أو جزء من الإله !

لقد ضرب الإنسان العالم بالأضغان والمدمرات وأشعل الحياة وهو طفل عاجز قاصر ... فما بالكم به إذا حسب أن إرادة نفسه هى من إرادة الكون كله ؟!

إن الأمر أعظم مما يتصور هؤلاء المفلسفون المأفوكون ! وإن الحياة العقلية لم تقبل أن يكون للكون آلهة متعددة من العقلاء ... فكيف بهم إذا كانوا مجانين ؟

فاللهم اهد الرصافى في شيخوخته ومرضه إلى منطق البداهة حتى يعود إليك على دين الفطرة التي يلقاك بها الفطريون المؤمنون الذين يتركون لك ما لم يستطيعوا إدراكه في حياتهم المحدودة !

* * *

هذا جدل يعتمد على النظر وتقليب المسألة أمام المنطق التجريدى الذى يصطنعه أصحاب المذهب، ويعتمد أيضاً على التحاكم في هذه المسألة إلى المنطق العملي الذى توحيه الحياة الاجتماعية

ولو كان الأمر مقصوراً على هذا الأسلوب لوجد أصحاب هذا المذهب مجالا للمناقشة ورد القول وتشقيق الجدل ، وما كان طمعنا في إفحامهم إلا بقدر

ولكن عمدتنا في دحض هذا المذهب حجة بالغة من العلم الحديث صاحب المعجزات التي تخضع لها جميع أعناق البشر ، ولا يستطيع أن يجارى فيها المارون من صناع الكلام وحاذق الجدل

حجة يمنحها التأمل بيقظة في أسرار الأعمال الإنسانية العظيمة في الطبيعة : تلك الأعمال التي استحالت إلى آيات من

آيات الكون يمر عليها الناس وهم عنها معرضون ، كما يفعلون مع آيات الله فى الآفاق ...

وهى تَسَلُّط العقل البشرى « باللاسلكى » وتحكّمُه به فى الآلات وإدارتها ورصدها من بعد شاسع ، وانفصال تام بين العقل الإنسانى والآلة . . . فقد رأينا (ماركونى) يضىء مكاناً فى استراليا وهو فى أوربا ... ورأينا الدبابات تزحف والطائرات تطير وتحارب وليس فيها سائقون ... وإنما يديرونها ويتحكمون فى تحريكها من بعد

ورأينا « رادار » تلك العين السحرية العجيبة التى حدثتنا مجلة (المختار) عن التقائها أو التقاء الإنسان بواسطتها بالأجسام على مئات وآلاف من الأميال . ومع أنها فى العهد الباكر من اكتشافها والانتفاع بها ، فقد انتفعت بها انجلترا فى مقاومة الغارات الألمانية فى معركة انجلترا

ورأينا أن ما يحدث لتلك الآلات ينتقل إلى ذهن الإنسان الراصد لها فى لحظة . فهو معها بعلمه وقدرته وإرادته يصرفها كيف شاء مع الانفصال التام والبعد الشاسع بينه وبينها . وهو يكونها ويركبها ويجعل فيها عقلاً وروحاً تحركها وتصرفها . وما دام قد أعطاها قوانينها فلا لزوم لوجوده فيها والمكث بجانبها أو الامتزاج بها

أفلا تقاس على هذا الأساس علاقة الله بالكائنات ؟ وتحل بذلك تلك المشكلة التى خلقتها عقول من لم يروا لهم سبيلاً غير اعتناق مذهب وحدة الوجود ؟ بلى ! فإن ما يقدر عليه الله لا يذكر بجانبه ما يقدر عليه هذا الإنسان الضئيل العاجز . ولا شك أن من كمال الإنسان أن يقدر على التصرف فى « مخلوقاته » من بعد ، وأن يرصدها ويرقبها ويوجه إرادته إليها وهو متحرر منها منفصل عنها لا يشعر بضرورة الاتصال بها والتقيد بحيزها الضيق ... فأولى برب الكمال المطلق والقدرة المطلقة والإرادة القاهرة أن لا يكون عليه لشىء سلطان وألا يتقيد بقيد

وإن فى ذلك آية يرسلها الله من التأمل فى أسرار الإنسان ووحى أعماله فى الأرض ... وسبحان الله ! لقد أقام من الإنسان دليلاً ووسيلة لحل كثير من العقد والمشكلات ، وخلقه صورة مقربة لبعض شؤونه الجليلة التى يتعجل المتعجلون فى الحكم عليها بعقلهم القاصر وفى مدى عمرهم المحدود الذى لا يقاس إلى الأبد الكبير الذى يظهر الله فيه شؤون الخلق والأمر فى أدوارها وأوانها الموزون المقدور و« لا يعجل لعجلة أحدكم » كما قال « محمد » سيد الأصفياء العارفين بشؤون الله !

وقد قلت مرة : إن الحياة لم تنته ولم يبد أنها تقرب من نهايتها التى تتضح بها غاياتها وتنضج ثمراتها . فلا يليق بالفيلسوف أن يحكم حكمه النهائى عليها قبل انكشاف غاياتها . وأولى به أن يرصد الأدلة التى تلدها الأيام وتضعها على طريق الأحياء يوماً فيوماً لترشد السالكين وتشير لهم إلى الأمام

ومنذ أن اهتدى الإنسان إلى وجود القوة التى يظهر أنها « مادة » الطبيعة الأولى وهى الكهرباء ، وبعد أن شرع يدس يده وفكره فى هذه القوة الخفية ويستخدمها ويحرك بها ما يشكله من المادة . ومنذ أن ظن أنه سيصل إلى أن يكشف هذه القوة بدرجات مختلفة تحت ضغوط معينة ليخلق منها العناصر المادية المتبلورة الثلاثة والتسعين ... منذ ذلك كله ، ينبغى للمفكرين التجريديين أن يتربصوا أفعاله وكشوفه ليبنوا عليها أحكامهم ومنطقهم وأن يقتصدوا فى تلك الفلسفات الفرضية والشطحات الصوفية التى لا نهاية لها ، لأنها « ذاتية » وليست « موضوعية » موضوعها ذلك الكون المادى العجيب الذى استمددنا منه عقولنا وأحكامنا . وأن ينادوا معنا إلى الصوفية المادية التى تعجب وتتعبد بالفكر فى الطبيعة الظاهرة وأعمال الله وأعمال الإنسان فيها ، وتتعلق بالمحسوس قبل التعلق بغيره حتى تفرغ منه قبل نهاية رحلتها على الأرض ، ثم تلتفت — إن قدر لها البقاء على الأرض بعد هذا الدور — إلى ما وراء الطبيعة لتبحث فيه وتحكم عليه

عبد المنعم خلوف